

VOLUME 4, AUGUST 2011



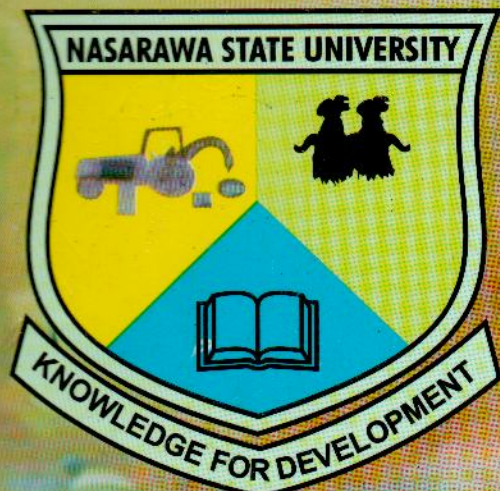
الإشراق

مجلة الدراسات العربية والإسلامية

AL-ISHRAQ

JOURNAL OF ARABIC AND ISLAMIC STUDIES

Nasarawa State University, Keffi, Nigeria.



A JOURNAL OF THE ARABIC AND ISLAMIC STUDIES UNITS

Nasarawa State University, Keffi, Nigeria.

ISSN 2006 - 6554



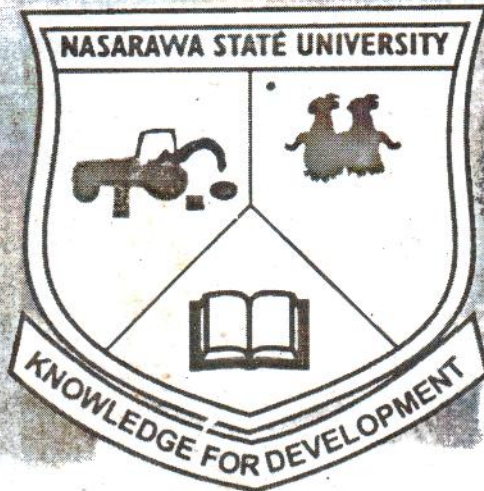
VOLUME 4, AUG. 2011

الإشراق
مجلة الدراسات العربية والإسلامية

AL-ISHRĀQ

JOURNAL OF ARABIC AND ISLAMIC STUDIES

Nasarawa State University, Keffi, Nigeria.



A JOURNAL OF THE ARABIC AND ISLAMIC STUDIES UNITS
Nasarawa State University, Keffi, Nigeria.

ISSN 2006 - 6554

Dr. Khalid Abdur-Rahman
Muhammadu Umar
Abdullahi Yusuf

قصيدة دهاء الفم للشاعر عيسى ألي أبي بكر: دراسة وتحليل

بقلم

خليل الله محمد عثمان بودوفو

المقدمة

نتعرض في هذه المقالة المتواضعة لدراسة إحدى حكايات يورباوية قام عيسى ألي أبوبكر بترجمتها إلى اللغة العربية ونظمها شعراً، إذ إن الشعر العربي في نيجيريا قبل القرن العشرين الميلادي كان موضوعاً في الزهد والوعظ والإرشاد، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم ونحوها، ولم يتعرض العلماء في نيجيريا للوصف أو الهجاء أو الغزل، ولم ينظموا في غير الأغراض الدينية إلا قليلاً. ولعل الشاعر عيسى ألي من أوائل الشعراء النيجيريين الذين نفخوا روح الحركة والنشاط والتجديد في الشعر العربي النيجيري، تناول في أشعاره الأغراض الجديدة التي لم تكن مشهورة في نيجيريا أمثال القصة، والرواية، والحكاية. وأما لو تتبعنا تاريخ نشأة الشعر في الأدب الشفاهي عند العرب فسنجد أنه يعود إلى أيام بني أمية أو قبله بقليل، إذ قد ذكر المسعودي في مروج الذهب، أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان كان يأخذ ساعات من كل يوم يقعد فيها، فيحضر غلمان الدفاتر، بها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكائد فيقرأ ذلك عليه غلمان،¹ فلا يقرأ القارئ هذه الدفاتر إلا بالشعر، وإذا أغفل أمر الشعر أسرع معاوية ليقول له: "سألتك ألا تمر بشعر تحفظه فيما قاله أحد إلا ذكرته"² وكأنما القصة لا تصح عنده إلا بشعر يرد على السنة من يدور عنهم الحديث، فيقول له: "سألتك إلا سددت حديثك ببعض ما قالوا من الشعر، ولو ثلاثة أبيات"³

وهذا النوع من الشعر كان تقليداً متوارثاً في القصص العربي، وهو أيضاً "أداة تعبيرية عالمية تعين القاص العربي وغير العربي على أداء مهمته الفنية، وتسهل له رسم الصور

ومعالجة الموقف. أما هذه القصيدة فهي نوع من أنواع الفن الشفاهي في الأدب العربي النيجيري.

ولهذا نحاول في هذه السطور أن نلقى الضوء عليها، ولعل هذا الصنيع مما يضع أيدينا على مستوى شعر الحكاية عند شاعرنا وعند علماء اللغة العربية في الديار النيجيرية.

حياة الشاعر:

هو عيسى بن أبي بكر، ولد بمدينة كمامسي الغانوية لأبوين إلورنيين عام ١٩٥٣م، حصل على الشهادتين الإعدادية والتوجيهية بمركز التعليم العربي والإسلامي أجيحي لاغوس، حصل على شهادتي الدبلوم والماجستير في اللغة العربية بجامعة بايرو، كنو، وعلى الليسانس والدكتوراه في اللغة العربية من جامعة إلورن. قال الشعر منذ كان يافعا وظل مواظبا على قوله ونحوه وتصقيه حتى قويت شوكته. وقد نال بالشعر جوائز ودياشين أعلاها الجائزة الأولى في المسابقة الشعرية التي نظمتها جامعة الملك سعود بالرياض ضمن فعاليات أسبوع التوعية حول مضار التدخين عام ١٩٩١م،

للشاعر ديوانان اثنان: الأول "الرياض" يحتوي على نحو مائة وسبع عشرة قصيدة، صفت في ثمانية أبواب، وهي المدائح والتهاني، والأخلاقيات، والوصف، والسياسية، والفخر، والغزل، والشكوى، والعتاب والمراثي^٥. أما الثاني "السباعيات" فإنه يحتوي على مائة وسبعين^٦ قصيدة، نظم الشاعر هذه القصائد في مناسبات مختلفة، وفي فترات متباعدة، مما أدى إلى تفاوتها في قوة الإبداع، ولعل اختلاف البيئات التي عاش فيها الشاعر مما أثر في أكثر قصائده كل تأثير.

بين يدي القصيدة:

يبلغ عدد أبيات القصيدة ٦٧ بيتاً، نظمها الشاعر في حكاية يورباوية سمعها من إذاعة ولاية كوارا في السبعينيات^٧، وقد ضمنها ديوان "الرياض" ولم يذكر الشاعر السنة التي نظمها، ولكن تعتبر القصيدة من أجود ما قيل في الحكايات الشفاهية في نيجيريا.

نص القصيدة:

جری انقراض أمير	من أعظم الأمراء
له من الدولة الكبـ	رى ألقى في علاء
له كثير من الما	ل لا يرى من شقاء
له من التسل أصغوا	من أنجب الأبناء
وهم حواس الرجال	لا ذرة من مرء
فقام يوماً عداء	أعظم به من عداء
والكل يطلب ملكا	لنفسه لاعتلاء
حتى أميت كثير	من جلة أبرياء
فقام قوم خيار	من سادة حكماء
ليطفئوا نار حقد	لنجدة الأشقياء
وسألوا العين لكـ	نّها أتت بافتراء
هى التى تنظر الأشـ	ياء بحسن أداء

ولا ترى الضّعف يوما في الفجر أو في المساء
ليست بذات حصور لا تشتكى من وباء
وفضلها لكبير في نظرة الأشياء
"بوحدتي دون شك" أرى نجوم السماء
وأنا نور وباقي الـ أعضاء كالظلماء
أنا أرى الناس خيرا ينجي بدون رياء
أنا رئيسة أعضاء لهم بكل ولاء
لولاي كيف يرى النا س لذة من ذكاء؟
تخبّطوا حين فقدى تخبّط العشواء
وهذه الآية الكبـ رى كيف تبدو لراء؟
وسألوا الرجل بعد فقد أتت بادعاء
قالت: "ولى من صنوف الـ عدو تجاه العناء
وإننى أنقذ النـ س ساعة العسراء
فيأمن الناس شرّ الـ حوادث النكراء
وسألوا الأذن تمشى في لبسة الأثرياء
تنظر كل جهات بنظرة الخيلاء
قالت: وبى يسمع النـ س قولة البلغاء

لولاى ما عرف النّاء	س صفة الأدباء
وكنّت مصدر علم	لزمرة العلماء
ولم أكن يا رجالى	كصخرة صماء
عليكم أيّها النّاء	س لى بحسن الثناء
واعترفوا بجميلى	وعزتى وغلائى
إذا تعبتّم فى تسـ	ممعون صوت الغناء
أو كنتم فى شرك الـ	حبّ لى العذراء
فى تنالون لذّا	ت كلمة الحساء
وقد أتت نوبة الرّا	حة غداة القضاء:
"عاش القضاة إذا ما	وعوا جليل شكائى
أنا التى تحمل السيّد	ف فى لظى الهيجاء
ولا أخاف بلاء	من غضبة الأعداء
إلى يرجع فضل	لرفعتى للواء
وفيه رمز علائى	وفيه رمز إبائى
إن اختراق السّمايا	قد كان لى كالرداء
أذيق كلّ عدو	طعم الأسى والعفاء
إني أرى النّاس صاروا	فى ذمتى وورائى

وإننى أحترث الأر	ض دائما بوفاء
أنا التى تطعم الجسد	م دائما بغذاء
وقد فشى ذكر أعما	لي إلى الأرجاء
أكرم بمنى وفضلى	في نصرة الأحياء
وليس ينكر فضلى	إلا ذوو الإغماء
لكننى أحمد اللـ	ه صاحب الآلاء
وسألوا الأنف قالوا:	ماذا ترى من ذكاء؟
فقال: بى ينشق الإنـ	سان لذيذ الهواء
لولا هوائى لمات الـ	ناس بلا إرعاء
وقد كفانى فخرا	بقاؤهم فى بقائى
والله يعلم أنى	فى العز فوق السماء
وسألوا الفم جهرا	فلم يجب للدعاء
وطلبوا منه قولا	فصار كالخرساء
وجاء وقت عشاء	فلم يذق من عشاء
ولم يذق طعم ماء	وقت الصدى والظماء
حق عرى الجسم فورا	تضاعف البرحاء
فظهر الجسم حالا	في صورة العجفاء

فقد توالى رجال الـ —حى ساعة داء
 أتوا بكل دواء لبرئته والشفاء
 لكنه قد نفى البرء طالباً للدهاء
 فمنحوه اضطراراً رئاسة الأعضاء^٨

معاني المفردات:

الكلمات	معناها
انقراض	موت و وفاة
علاء	رفعة و شرف
أصغوا	أحسنوا الاستماع إليه
حواس	أعضاء الجسم الإنسانى
ذرة	أصغر شئ فى عنصر ما، أى بلا أدنى شك
اعتلاء	تولّى العرش و تقلده
نجدة	نصرة و إعانة
افتراء	كذب و اختلاق
ذات حسور	ضعيفة
الولاء	المحبة و الصداقة
ادعاء	افتراء أو كذب

الحوادث النكراء	الشديدة
لبسة الأثرياء	حالة الرخاء
صمّاء	صلب
الغلاء	ارتفاع السعر
شراك الحب	الوقوع في العشق
النوبة	الفرصة
وعوا	من وعى: واحفظوا
لظى الهيجاء	شدة الحرب
اللواء	العَلَم
اختراق المنايا	فجأة الموت
العفاء	الزوال والهلاك
الأرجاء	جمع الرّجاء: الناحية
ينشق	يشم
الخرساء	مؤنث الأخرس: التي لا تتكلم عيّا أو خلقة
العشاء	طعام العشى
عرى الجسم	أصابه وألمّ به
العجفاء	مؤنث الأعرج: الهزيلة

الدهاء

العقل أو المكر

مضمون القصيدة:

تتضمن هذه القصيدة الحوار الجاري بين الشخصيات المجسدة في الحواس من العين، والرجل، والأذن، واليد، والأنف، والفم، حيث تفصح كل من هذه الحواس عن الأدوار التي تقوم بها في نجاح الإنسان في مساعيه، فالعين التي هي حاسة البصر تدعى حسن أداء مهمتها بأنها تنظر إلى الأشياء بوضوح وبدون اشتكاء من أي وباء، وأن فضلها يتمثل في انفرادها برؤية نجوم السماء لكونها نورا دون سائر الأعضاء، هكذا ادعت العين رئاسة الأعضاء حسب المثل اليورباوى السائر: "العين أبو الجسم" وبدون العين لا يرى الناس ضوء الشمس وبدونها يظل معيشتهم في تخبط عشواء، والرجل تدعى أنها تتميز بصنوف العدو، وأنها هي الآلة الوحيدة في إنقاذ الناس من الحوادث المفجئة ساعات العسر.

والأذن حاسة السمع بشكلها المياد تتخيل وتتختر ذلك أن الناس لا يسمعون قولة البلغاء، ولا فصاحة الأدباء بدونها، وأنها مصدر علم العلماء فالسمع أول ملكات الفهم، والأذن تستحق حسن ثناء الناس، واعترافهم بحميلها لأنها أداة تسليتهم بالغناء بعد لوعة التعب والمشقة من أعمالهم اليومية.

ثم انبرت اليد حاسة اللمس فعددت مناقب نفسها، وذكرت مميزاتها أمام القضاة والتي تتمثل في حمل السيف للنضال، وجرأتها في مواجهة الأعداء، ورفعة اللواء التي تمثل علاءها وإبائها، تحترق اليد المنايا، وتذيق كل الأعداء الأسى والعفاء، فاليد قوام الزراعة التي تزود الناس بالغذاء وهل فوق ذلك من فضل؟

والأنف حاسة الشم لم تتخلف في إبراز الحجج بالمحكمة، فقال: بي ينشق الإنسان الهواء ولولا ي لمات الناس من الضغط، ويكفيه فخرا أيضا أن بقاء الناس متوقف على بقاءه

فلما جاء دور الفم للاحتجاج والادعاء، أبى الفم ذلك طوال اليوم حيث لم يتحرك
بنت شفة، ولم يذق غرفة ماء، الأمر الذى أدّى إلى أن يتأذى جميع أعضاء الجسم من هذا
الإحجام، فاعترى الجسد الهزال، وظهر عليه أمارات السقم، فلم يروا بعد ذلك بداً من أن
يمسحوا الفم برئاسة الأعضاء إثر نجاحه فى الإقرار بأن الأعضاء جميعاً فى حاجة إليه، وهل بعد
هذا دهاء فى الصراع والافحام، هكذا استطاع الشاعر أن يتحف قراءه بهذا النمط من
الأدب اليورباوى الإفريقى الشفاهى فى وضع من الترتيب المنطقى للأحداث والتطورات.

تحليل الأبيات:

نحاول فى هذه السطور تحليل الأبيات من النواحي الآتية: المنهج وأسلوب العرض،
واللفظ والصورة، والتصوير الخيالى، والموسيقى.

أولاً: المنهج وأسلوب العرض:

لقد نهج الشاعر فى هذه القصيدة - كما هو واضح - منهجاً حكاثياً صرفاً، وهو المنهج
السائد لدى أصحاب الحكايات العالمية التى تغير ثيابها وعاداتها ولغتها، وتعبر الحدود،
وتكون مادة شيقة للدراسات المقارنة^٩، وفى هذا الصدد سنركز على الجوانب الآتية:

١- الافتتاح، حاول الشاعر أن يفصل بين عالمين: عالم الحكاية وعالم الواقع، حتى لا
يختلط أحدهما بالآخر، ويميل إلى التأكيد على أن أحداث الحكايات ليست معاصرة ولا
قرية، وإنما هي قد حدثت فى أزمنة بعيدة انظر الى ما ابتدأ به

جرى انقراض أمير ** من أعظم الأمراء

له من الدولة الكبـ ** رى التى فى علاء

له كثير من الما ** ل لا يرى من شقاء
له من النسل أصغوا ** من أنجب الأبناء

هذه البدايات تعبر عن أحداث لا تتعلق بالحياة التي نعيشها، ولا بالواقع اليومي الذي نكابده، بل تعبر عن عالم آخر في زمن بعيد، ومن ثمة ختم الشاعر قصيدته بأسلوب بسيط واضح يشبع حاجة الراوي والمستمع معلنا أن الفم نال بغيته أخيراً، ومنح له رئاسة أعضاء الجسم الإنساني وقال :

فمنحوه اضطراباً ** رئاسة الأعضاء

٢- استخدام القوالب الثابتة في الأسلوب: يعد الباحثون هذا النوع من أهم العوامل بالنسبة للراوى والمستمع على السواء: فالأول يجد في هذه القوالب الثابتة عبارات مألوفة سائغة تعود عليها وتساعد على فهم الأحداث دون كدّ للفكر أو اجتهاد للذهن^١، ومن هذه القوالب الثابتة ما يأتي على لسان بطل الحكاية أو على لسان واحد من شخصيات الحكاية مثل ماجاء على لسان العين عندما قالت

بوحدتى دون شك ** أرى نجوم السماء

ومنها الاستدلال والتمثل ببعض الأمثلة الشعبية المعروفة والشائعة، مثل ما جاء في القصيدة في شأن فقد العين، قال الشاعر على لسان العين:

تخطوا حين فقدى ** تخط العشواء

٣- الترادف والتكرار في هذه القصيدة وهما من خصائص الأسلوب الشفهي مرتبطة بعملية التذكر والذاكرة، ذلك لوضع الحدث المقصود التعبير عنه في بؤرة الضوء، مثال قول الشاعر:

فقام يوما عداء ** أعظم به من عداء

ومنها:

وفيه رمز علائي ** وفيه رمز إبائي

ومنها:

وقد كفاني فخرا ** بقاؤهم في بقائي

ومنها:

فجاء وقت عشاء ** فلم يذق من عشاء

وللتكرار وظائف متعددة فهو يظهر بناء النص، ويساعد الراوي على التذكر، كما أن عبارات ذات الإيقاع المتكرر في الحكاية يحفظها الناس بسهولة ويرددونها كأغنية تبقى في الذاكرة، وتنقل إلينا سحر الحكاية الشعبية، كما تساعد هذه العبارات الإيقاعية على تأخير الأحداث والتطويل¹¹.

ثانيا: اللفظ والصورة:

ألفاظ القصيدة سهلة وعذبة، وبعيدة عن الغرابة والحوشية، ولقد نوع الشاعر وتصرف في اختيار الألفاظ دون أدنى صعوبة، ولهذا جاءت تعابير واضحة المعاني، جلية المقاصد، ويلاحظ أن كثيرا من الألفاظ ذات طابع حكائي، فهي ألفاظ ذات علاقة بالقصة، منها ما يلي: لولاي، وعزتي، ورمز، وفي، وذمتي، وورائي ومني، وفضلي وهوائي... إلخ وقد كان الشاعر شديد الحرص على تلاؤم الألفاظ وتناسبها مما يوحى بقدرته العالية على التحكم على المفردات العربية، فليس مجرد صدفة جمعه بين الصوت والغناء، والصخرة والصماء، والعز والسماء فهو عادة يأتي باللفظ وصنوه.

ثالثا: التصوير الخيالي:

صاغ الشاعر هذه القصيدة في قالب من الألوان البلاغية التي ساعدت على ظهورها في هذه الصورة البديعية، ومن هذه الألوان استهلال صياغة القصيدة بالأسلوب الخبري الإبتدائي الذي يتماشى مع طبيعة هذا النوع من الحكاية التي لا مجال فيه من التأمل والتعقل لا من قبل الشاعر ولا من قبل الشعب. ومن التشبيهات الرائعة الواردة في القصيدة قوله:

وطلبوا منه قولا ** فصار كالخرساء

حيث شبه عدم إجابة الفم للسؤال بسكوت الخرساء من الكلام لعدم قدرتها على ذلك، ولا نقدر هذا البيت إلا إذا تخيلنا أحوال الفم عند سكوته عن الأسئلة التي يطلب منه الإجابة عليها. وهكذا كان للالتفات نصيب في القصيدة، وذلك في قوله:

أنا التي تحمل السيـ ** ف في لظى الهيجاء

أنا التي تطعم الجسـ ** م دائما بغذاء

فبدلاً من أن يقول الشاعر: أنا التي أحمل السيف، أنا التي أطعم الجسم، يوجد في البيتين التفات من المتكلم إلى الغائبة.

ومن مميزات هذه القصيدة تأثير بيئة الشاعر فيها، منها قوله:

فقد توالى رجال الـ ** حى ساعة داء

أتوا بكل دواء ** لبرئه والشفاء

يدل البيتان على أن الشاعر نشأ في البيئة الإفريقية التي تعالج أمراضها بالأدوية المحلية قبل الذهاب إلى المستشفى، وهذا يدل على أصالة الشاعر في قصيدته.

رابعا: الموسيقى:

من سر فنية هذه القصيدة استعانة الشاعر بموسيقى بحر المجتث المجزوء، التي تضاف عليها خفة الصياغة والتلحين، ولقد نظم في هذا البحر قليل من شعرائنا النيجيريين ولعل عيسى ألي أكثرهم نظما فيه، وكانت سهولة البحر للحفظ والغناء من الأسباب التي أدت الشاعر إلى إثارة في هذا الصدد، ظلت نسبة شيوع هذا البحر في الأشعار القديمة ضئيلة حتى جاء المحدثون، فنهضوا به واستعذبوا الوزن وموسيقاه، وربما كان حافظ إبراهيم^{١٢} أكثر الشعراء المحدثين نظما فيه.

يضاف إلى ذلك أن الشاعر اختار القافية التي تخلو من الصنعة والتكلف، بل حاول أن يحل هذه القافية بمثابة الفواصل الموسيقية التي يتوقع السامع تردها، ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الأذان في فترات زمنية منتظمة، فلا يكون القصيدة مقفأة إلا أن تشتمل على مثل هذه القافية وعلى الروى الذى يشترك في كل قوافي، ونحن حين نستعرض هذه القصيدة نجد أن حرف الهمزة الواقع في الروى مما يجمع رويا في الشعر العربي، إلا أن وقوعه في الشعر العربي النيجيرى كان قليلا أو نادرا، ويمكن أن نرجع سبب ذلك إلى وقوع حرف الهمزة بين حروف متوسطة الشيوع في الشعر العربي.

الخاتمة:

فيما سبق في هذه القصيدة تتضح لنا الأمور الآتية:

- ١- أن الشاعر عيسى ألي أبى بكر من أوائل شعرائنا النيجيريين الذين ترجموا أدب لغتهم المحلية إلى اللغة العربية ونظموه في قالب الشعر العربى الفصيح.

٢- حكاية دهاء الفم من أجود الحكايات الشعبية الواردة في الأدب العربي النيجيري عامة، وفي شعر الدكتور عيسى ألي خاصة.

٣- إن البيئة النيجيرية أثرت كثيرا في فكرة الشاعر وفي أشعاره.

٤- استطاع شاعرنا بهذه القصيدة أن يقف في صف واحد مع الشعراء العرب المعاصرين في إعطاء هذا النوع من الشعر حقوقه الفنية من حيث الأسلوب والصورة والموسيقى ونحو ذلك.

الهوامش والمراجع

- ١- فاروق خورشيد، أدب السيرة الشعبية، (القاهرة، دار توبار، ١٩٩٤م)، ص ١٤٥.
- ٢- المرجع السابق، ١٤٥.
- ٣- نفس المرجع السابق والصفحة.
- ٤- مشهود محمود محمد جمبا، الشاعر في سطور، (إلورن، مطبعة ألي ٢٠٠٥م)، ص ٣٣٣.
- ٥- راجع كلمة الأستاذ الدكتور محمد أول أبو بكر، في المرجع السابق، ص ٥.
- ٦- مشهود محمود محمد جمبا المرجع السابق، ص ١٧.
- ٧- حوار جرى بيني وبين الشاعر، عام ٢٩/١٠/٢٠٠٩م.
- ٨- عيسى ألي أبو بكر، الرياض، (إلورن، مطبعة ألي شارع جمبا ٢٠٠٥م)، ص ١٣٠.
- ٩- غراء حسين مهنا، أدب الحكاية الشعبية، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٧م)، ص ١٠.
- ١٠- المرجع السابق، ص ٤٦.
- ١١- نفس المرجع السابق، ص ٥١.
- ١٢- إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، الطبعة الخامسة، (القاهرة مكتبة الأنجلو، ١٩٧٦م)، ص ١١٥.